

فلسفة الكائنات

﴿ ٣ ﴾

الزمان

ولد نوح ثلاثة بنين - النبي ، والشاعر ، والفيلسوف

فمدار النبوة الوحي . ومدار الشعر الخيال . ومدار الفلسفة الحقيقة .

فالْحَقِيقَةُ ضالّة ينشدها طوم بلير في كن بحث

امام الزمان يقف طوم بلير

انني ولدت في زمان . وربيت في زمان . وتعلمت في زمان . وتزوجت

في زمان . انا في وقت . واستيقظ في وقت . اقرأ في وقت . واكتب في وقت .

واحسن في وقت . واسي . في وقت . امري في وقت . واشفى في وقت .

واعيش في وقت . واموت في وقت .

لكل شيء زمان ولكل امر تحت السماء وقت

انني افهم ان حر كتي تشغل زماناً كما تشغل مكاناً .

منذ بدأت اكتب الى الان مرّ وقت قصير .

ولكن من الوقت القصير تتألف الدهور

فان ستين ثانية دقيقة ، وستين دقيقة ساعة ، و٢٤ ساعة يوم و٧ ايام

اسبوع ، و٣٠ او ٣١ يوماً شهر ، و١٢ شهراً او ٣٦٥ يوماً سنة ، و١٠٠ سنة

جيل او قرن .

لما كنت صغيراً اذهب الى المدرسة مع خالي كنت افهم معنى الوقت .
لأننا ندخل المدرسة في الوقت ونخرج منها حين الانصراف في الوقت . وحين
دخولي دهليز المدرسة كنت اسأل من اراه من رفاقي « هل صار الوقت » ؟
وحين يقول لي « فات الوقت ودق الجرس » كنت افهم ذلك حالما يحرك
شفتيه فاركض مسرعاً خوفاً من مناقشة المعلم الحساب .

الوقت مفهوم عند علوم بلير وعند اصغر ولد

فهو ككلمة « انا » حين اسمعها او ألقظها فالمراد بها مفهوم . ولكنني اخاف
ان يكون فيها ما في تلك . ن المشاكل .

لما درسنا الفلسفة فهمنا ان المادة مقياس الفضاء والحركة مقياس الوقت
فتقول مثلاً البعد بين بيروت وصيدا ٢٥ ميلاً والمسافة بين لندن
ونيو يورك ٥٠٠٠ ميل . واذا لم تتعين نقطتان الواحدة في اول المسافة
والثانية في آخرها يستحيل قياس الابعاد . وبذلك تكون المادة مقياس الابعاد
او الفضاء . كذلك الحركة هي مقياس الوقت .

فنقول ان الوقت من شروق الشمس الى غروبها ١٢ ساعة

فاذا لم تكن حركة فلا وقت او لا ضبط للوقت

اذا وقف رقاص الساعة لا تقدر ان تفهم كم مر من الزمان وكذلك
اذا وقف الفلك فلم تشرق الشمس ولم ينرب القمر بل ظل كل شيء في
مكانه . واذا وقف قلب علوم بلير وتوقف نبضه . فذلك يضيع عليه حساب
الوقت . فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . .

قال المعلم - يا طوم ، كم حركة للأرض ؟
 سوءال مدهش فأنني منذ ولدت على هذه الأرض كنت أنا المتحرك
 والأرض ساكنة . وفي كل حياتي لم أر الأرض تتحرك . ولا ظننت أن
 لها حركة .

وقد سألت امي وجدتي وابي وجدي - هل رأيتم الأرض تتحرك ؟
 فقالوا كلهم - كلا ثم كلا

ولكن اذا قلت للمعلم ان الأرض لا تتحرك يهز لي العصا وهذه الحركة
 تخيفني أكثر من حركة الأرض والسماء .

فعدلت عن شهاداتي اهلي التي لا تنفعني ولجأت الى كتاب المرحوم
 فاندريك وقلت له - يا معلمي للأرض حركتان . حركة يومية وحركة
 سنوية . فمن الحركة اليومية تعاقب الليل والنهار ومن الحركة السنوية
 تعاقب الفصول الأربعة .

- « عافاك ، يا طوم بليز ، انك ستكون فيلسوفاً حالاً أقعد »

الحمد لله لقد زالت مرارة الموت . . . وحاز جوابي القبول لانه جواب
 فيلسوف . وبعد ذلك فهمت ان الناس اصطلمحوا على تسمية المدة بين شروق
 الشمس في الصباح وشروقها ثانية في اليوم الذي بعده يوماً واحداً وقسموها
 الى ٢٤ قسماً متساوية الواحد منها ساعة . الغ

وافهم الان معنى قولي ان عمري خمسون سنة . وعمر ابي خمس وسبعون
 سنة . وعمر جدي - لو ظل حياً الى اليوم - ١٠٠ سنة

واعرف ان المسيح ولد منذ ١٩١٧

وموسى منذ ٣٥٠٠ ونوح منذ ٤٥٠٠ وآدم عليه السلام منذ ٦٠٠٠
او ٧٠٠٠ سنة تقريباً .

ولكني اعرف ان الزمان كان قبل آدم

فمتى ابتداء وهل له بداية ؟

مسألة حار فيها فكر بليز .

قال العلماء ان العصر الجليدي كان منذ ٢٥٠٠٠ سنة

وان الحياة بدأت على الارض او بالحري ان الارض صلحت لظهور الحياة

عليها منذ ما بين ١٠٠ مليون و ٤٠٠ مليون سنة . طيب فهنا

وقالوا ان عمر الارض اكثر من ٤٠٠٠ مليون سنة

وعمر الشمس ٤٠٠٠٠ مليون سنة

مسلم به ولكن هل الزمان ابتداء ببدء وجود الشمس ، او كان قبانه ؟

قال موسى « في البدء خلق الله السموات والارض »

فمتى كان ذلك البدء . ؟

وهل لم يكن زمان قبل ذلك ؟

ان موسى لم يقل ان الله « خلق الزمان » بل قال انه « خلق » في الزمان

« وكان مساءً وكان صباح يوماً واحداً »

أفلم يكن صباح قبل ذلك المساء ؟

وهل الزمان غير مخلوق ؟ - استغفر الله العظيم .

ولكن اذا افترضنا انه «مخلوق فباذا كان قبله
هل كان زمان لم يكن فيه زمان ؟ طوم بلير لا يريد ان يتول نعم .
ان الرجوع الى الوراء ليس له نهاية . وهذا هو الازل .
فاذا الزمان ازلي اي لا بداية له
فما هو الازل ؟ كيف يستطيع طوم بلير ان يتصور الازلية والازل .
ان مسألة المعلم عن حركات الارض اسهل عليّ ولداً من الازلية اليوم .
فالمشاكل لم تفارقني اذ كبرت بل هي تزيد كلما تقدمت في العمر .
فيا ويلاه ما اعسر الحياة على بلير المسكين .

المعلم رضي يوم جابته من كتاب فاندريك الحكيم . ولكن عقلي اليوم
لا يكتفي باجابة كل الحكماء . وهو يروغني في تدقيقه اكثر من عصا المعلم .
فماذا اعمل ؟ لا اقدر ان اهرب من عقلي . ولا اقدر ان افهمه
الازل ! . وكيف يفهم طوم بلير الازل ؟
امام ظلمات الازل يقف طوم بلير المسكين خاشعاً ذليلاً
وها هو يناجي نفسه بين الشعر والفلسفة قائلاً
— ويحك يا بلير . كيف يمكنك تصور الازل
اذا كان العمران كله ينحصر في بضعة الاف من السنين
في هذه المدة المحدودة تنحصر حوادث السياسة والعلم والاقتصاد —
والاكتشافات — والانتقابات

كل ما اسمعه واقرأه من التواريخ ينحصر في ستة الاف سنة او اقل

في هذه السنين ظهر على مسرح التاريخ الامم والممالك الآتية حسب ترتيبها التاريخي .

مصر ، الكلدان ، بابل ، اشور ، مادي ، فارس اليونان ، الرومان ، اليهود
هذه امم وممالك التاريخ القديم

ثم انعم ، الترك ، الاروام ، الفرنسيون ، الالمان ، الانكليز ، الروس ،
اليابان ، الصين ، الاميركيون

وهذه امم التاريخ المتوسط والحديث .

كل هذه الامم ظهرت على مسرح التاريخ في حصة من الزمان هي كلحظة
قصيرة بالنسبة الى الدهور الازلية .

في هذه الفسحة القصيرة ظهر موسى ومحمد والمسيح - وبوذه وبرهما
وزرادشت . واسسوا دياناتهم المعروفة .

وما اعظم واهول ما نقرأه عن اليهودية والاسلامية والنصرانية والبوذية
والبرهمية والمجوسية .

فاذا كان ذلك حدث في الزمن القصير فكيف تكون الحال في الازلية .
فلنجل قليلاً في اصل الكائنات علنا نهتدي

« اصل الكائنات »

للعلماء في اصل الاكوان رايان - الاول الراي السديني ، والثاني
الراي التواني .

— الرأي السديمي —

وصاحب هذا الرأي على ما يظن طوم بليز هو كوبرنيكوس الفلكي
وباسكال الفيلسوف . قالوا

ان الارض والقمر والشمس والنجوم — التي نراها والتي لا نراها —
كانت في الاصل سحباً لطيفاً منتشرآ في ساحة الفضاء الهائلة التي لانعرف
لها حداً .

وهذا السحاب يسمونه السديم .

قالوا — تتبرهن لطافة مادته بأنه لو جمع منها ملايين الاقدام المكعبة
وضغطت لوسمها كستبان واحد .

من هذا السديم البسيط اللطيف الاصلي تكونت الاجرام على النحو
الآتي بيانه —

في زمن مجهول ؛ وبقوة مجهولة ، ولغرض مجهول ، أخذ هذا السديم
باجمعه يدور على محوره . وهذه الحركة هي بد، تصوير الميوني غير الصورية
وعن هذه الحركة نشأ النور والحرارة . وهما اول مظاهر الوجود
وبسبب دوران السديم على محوره انتفخ في وسطه — عند خطه الاستوائي
— وتسطح عند قطبيه — حسب نواميس المادة . وزاد الانتفاخ بتوالي
الدوران . واخيراً زادت القوة الدافعة في السديم عند اوسطه على القوة الجاذبة .
فانفصلت منه عند الانتفاخ قطعة كبيرة . واندمجت الى بعد سحق في ساحة
الفضاء . ثم جعلت تدور على محورها كماها وحول امها ايضاً

فالدورة الاولى هي اليومية . والثانية هي السنوية .
وبعد مدة عاد السديم فانتفخ من اوسطه . وقذف بقطعة ثانية في ساحة
الفضاء . ولكنها لم تبلغ حد اختها الاولى بل كانت اقرب منها . كان السديم
ضعف قوة على تمادي الزمان .

ثم قذف ثالثة ورابعة وخامسة الى ما شاء الله .
وكل من هذه القطع المقذوفة تسمى قنوان او عنقود
فلندرس تاريخها

قلنا ان هذه القطعة جعلت تدور على مركزها . وبهذه الكيفية انتفخت
وولدت كامها اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً الخ
وهذه المولودات تسمى الشموس او الثوابت . ومنها شمسنا فهي حفيدة
السديم وابنة العنقود .
وجعلت الشمس تدور على محورها كامها وجذبتها فولدت نظيرها على
التوالي .

ومن اولاد شمسنا الارض وعطارد والزهرة والمريخ وزحل والمشتري
واورانوس ونبتون . وهذه هي السيارات . ولكل نجم ثابت في هذا الفضاء
سيارانه .

والسيارات تلد كامها تها . واولادها الاقمار .
وهنا تنتهي الولادة على ما نعلم .
فالشمس والدة الارض وجدة القمر

وهي ابنة العنقود وحفيدة السديم .

وهذه سلسلة الكائنات المادية

١ - الأقمار تدور حول السيارات

٢ - السيارات واقمارها تدور حول الشمس الثوابت

٣ - الثوابت بسياراتها واقمارها تدور حول مراكز العنقود او القنوان

٤ - العناقيد بثوابتها وسياراتها واقمارها تدور حول السديم

ولعلماء الفلك في ابعاد الاجرام وحجوبها وحركانها واتجاهها وترباطها
مباحث ضافية لا محل لها هنا .

- الراي التواني -

وهو كالسديمي . يفترض الميولي في حالتها السديمية . ولكنه بدلاً
من دورانها على محورها يفترض ان دقائقها أخذت في وقت مجهول : وبقوة
مجهولة ، ولتقصد مجهول ، تتجاذب وتتضام فيتحد بعضها بالبعض الآخر .
فتكونت في مادة السديم عقد كالعقد العصبية في الجسم الحيواني

وهذه العقد كالذوئل الصغيرة في الاجتماع البشري . ومن الواضح ان
قوة المجاذبية في العقد اقوى منها في الدقيقة الواحدة . كما ان القوة الحرة
في كتبية من الجند اقوى منها في اي فرد منهم . وبذلك زاد انضمام الدقائق
بعضها الى بعض . فتمت العقد واجتمعت واتسع نطاقها حتى تألف منها -
على مر الازمان - الاجرام السوية بين اقمار وسيارات وثوابت والنخ
وكلا المذهبين لا يتصل باصل الحركة الذولى ولا يبحث في سببها والغاية

منها ولا يعين زمانها .

وسواء صح الرأي السديمي او النواتي او فسد كلاهما فطوم بلير ما زائل
في مكانه القصي عن مدارك الازل

فهو يذمض عينيه ثم يفتحهما كالاعشى حديثاً
ثم يرفع رأسه ويقول

— هل بدأ الوقت يبدء الحركة او تقدم عليها ؟
فاذا كان قد بدأ يبدئها فماذا كان قبله ؟

هل وجدت المادة في لا زمان : وشرعت تتحرك فخلقت الزمان ؟
نعمذ بالله من طوم بلير وسوء الاته .

ثم قال — وكم من الزمان مرَّ على السديم قبلما تحرك ؟
وكم مضى منذ بدأ يتحرك ؟

ولماذا لبث ساكناً أولاً ؟ — الى غير ذلك من المشاكل . والمخلاصة
ان « الازل غير مدرك »

.....

— (المستقبل) —

قال طوم بلير .

— دعنا من اعماق الازل . ولنحول عنان البحث الان الى المستقبل . لان
السير الى الامام هو سنة الطبع
وكل ما عن منهج الطبع التوى نكبه النفس ولو نفعا جنى

وقد استحسن علوم بلير ان يشذ عن الاصطلاحات العلمية ويسلك في
مباحثه المويضة مسلك البساطة ليقود الافهام الى الادراك بسهولة وارتياح .
فقال - انا اليوم في سن الخمسين
وان شاء الله وابقاني حياً فسأموت ابن مئة سنة
ولكن هل ينتهي الزمان بموتي ؟

لقد كان الزمان قبلي ولم يولد بولادتي . فلا يبعد انه يبقى بعدي
ولا يموت بموتي . فمتى ينتهي الزمان ؟ . او هل ينتهي ؟

قال العلماء بانقراض النوع الانساني بعد بضعة الاف من السنين . فان
الحرارة الواردة من الشمس الينا - وهي شرط الحياة الضروري - آخذة
في التناقص . ومتى نقصت عن القدر اللازم للحياة يبيد الانسان والحيوان
والنبات . وتصير الارض كالقمر خالية من الحياة ومن الصلاحية للحياة .
والاجرام كالسيدات يدركهن الهرم فيتوقفن عن الانجاب فمتى شاخت
الارض ، وادركها الهرم ، تصير كجدتي العجوز لا تلد ولا تفرخ . ولكن اذا
بلغنا ذلك فهل ينتهي الزمان قبل الارض فلا ريب في انه سيظل بعدها .

وهب ان براكين الارض تفجرت دفعة واحدة ، او اصطدمت الارض بسيار
آخر من السابحات في هذا الفضاء اللامتهي ، فانحلت السموات ملتهبة ،
وزالت الاجرام بضجيج ، وذابت العناصر ، واحترقت الارض والمصنوعات
التي فيها ، فانتهى العلم والدين والسياسة ، وزالت الكنائس والمدارس والمحاكم ،
وعنت رسوم التأليف والاختراع ، أفينتهى الزمان بانجلال النظام الشمسي

او يظل بعده ؟

ان عقل بلير كثيره من العقول ينهم ان الزمان لا ينتهي بنهاية النظام
والمادة ، لانه لم يوجد بوجودها بل هو مستعمل عنهما
نعم اتنا نقيسه بالحركة ولكن الحركة وان قاسته فلم توجد . كما ان
المادة التي بها تقاس الابعاد لم توجد الفضاء بل كان قبلها . فمهما تقدمنا
الى الامام يظل العقل يسأل « وماذا بعد ؟ »
ثم ماذا ؟ ثم ماذا وماذا ؟

والجواب الوحيد المقول هو ان « الزمان لا ينتهي » في المستقبل . وما
لا ينتهي في المستقبل هو ابدى . « فالزمان ابدى »
وقد سبق انه ازلي . فهو ابدى ازلي كان من قبل الاجيال والابدي
الازلي هو سرمدي . فالزمان سرمدي .

فالسرمدي او السرمدي هو ما ليس له بناء ولا نهاية
قال احد الخطباء يصف الابدية — « اذا جاء الارض طائر في كل مئة
سنة مرة واحدة ، وحمل براس منقار نقطة ماء من الاوقيانوس الغايم لامكة .
على مرور الزمان ان ينشف الاوقيانوس . والابدية لا تنتهي »
وقال بلير على نفس القياس — اذا جاء طائر الى النظام الشمسي كل
مئة مليون سنة مرة واحدة . وحمل بمنقاره ذرة واحدة من ذرات الهباء
المنشر في ساحة النظام الشمسي والموجود في اجرامها لامكة نفاد كل الذرات
على طول الزمان ، ولكن الابدية لا تزال في بدايتها . فما اوسع المجال على طوم

بليز وما اقصر عقله عن الادراك .

قال العلماء : - ان قسمة الزمان الى ماضٍ وحاضر ومستقبل خطأ .
وصوابه ان الزمان قسمان - ماضٍ ، ومستقبل
وان ما يسمى بالحاضر انما هو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل . وكيفية
ذلك تبين مما يأتي -

الزمان هو الكم المنفصل بغير نهاية

فانقسامه تتوالى ولا يجتمع منها اثنان . فلا تدخل سنة ١٩١٨ حتى تنتهي
سنة ١٩١٧ . كما ان هذه لم تولد حتى ماتت سنة ١٩١٦ قبلها

وهكذا الشهور والاسبوع والايام . لا يتبدى . واحد حتى ينتهي اخوه .
والدقيقة موءلفة من ستين ثانية لا تبدى . واحدة منها حتى تنتهي التي قبلها
وتقسم الثانية الى ستين ثالثة . ولا تبدى . ثالثة حتى تمر التي قبلها .
والثالثة جزء صغير من الوقت يكاد لا يدرك لقصره . فان الحواس لا تميز
بين المحسوسات الحادثة في اقل من ٢٤ ثالثة . فاذا كانت مدتها اقصر من
ذلك اختلطت صورها في الدماغ . مثال ذلك - اذا وضعت ناراً في مقلاع
وادرتها بسرعة حول رأسك ظهرت لك النار في دائرة حولك مع ان لا دائرة
هنالك . وانما النار في المقلاع وهي دائرة حولك لتنتقل على اجزاء الدائرة
في اقل من ٢٤ ثالثة فلا تشعر العين بانتمالها بل تراها ثابتة كأنها دائرة متصلة
المحيط من نار .

فوحدة الزمان كافراد الشاء الداخلة الحظيرة واحدة واحدة . ولذا

قالوا ان الوقت هو الكم المنفصل بغير نهاية . وما نسميه حاضراً إنما هو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل لأنه لا وقوف في سلسلة الزمان والنقطة في اصطلاح الرياضيين ما له وضع بغير طول ولا عرض ولا عمق . ولكن اذا امتدت النقطة تألف منها الخط . وامتداد الخط يؤلف السطح وامتداد السطح يرسم الجسم . واذا دارت النقطة رسمت المحيط واذا دار المحيط رسم الكرة . فالاشكال الهندسية من خط وسطح وجسم مؤلفة من النقطة الوهمية فكأن كل شيء من لا شيء . وهذا هو شأن الزمان . فانه مكون من اتصال وحدات لا تدرك قيمتها او لا قيمة لها فيتألف من تواليها السرمد . الفراغ يحيط بالانسان من الجهات ائتس وهي فوق وتحت وامام ووراء ويمين وشمال . ولكن الزمان يتصل بنا من جهتين فقط الماضي والمستقبل وكل اجزائه سابق ولاحق او سابقات ولاحقات وما قيل في المكان يقال في الزمان فان كليهما غير محدود وفيه التضاييا الآتية --

١- لا يتجزأ ولا يتمدد

٢- لا يشغل وسطاً ولا يخلو منه وسط

٣- انهما متداخلان غير معتزلين ولا متمزجين ولا مستقلين

أما اذن اثنان ام واحد . أم مظهر واحد آخر هو سر الوجود ؟ أجب يا بلير !

قال بلير -- انني لا ادري . ولا اجسر ان ادري .

لأنني أخاف الكفر والالحاد ولا اتق بعقلي لأنه محدود ، ولا يدرك
المحدود غير المحدود والسلام .

« حنا خباز »

الاسكندرية



إذا أحببت انساناً من غير سبب فارحُ خيره ، وإذا أبغضت انساناً من غير
سبب فتوق شره .

(جعفر البرمكي)

أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

(علي بن ابي طالب)

اللاسلكي يرمز الى الدين . فيه نرسل افكارنا الى مجاهل غير منظورة
خلال السكون . ونظامه لم يزل خفياً عن الناس . وهذا العالم انواسع مفعم
بالخفايا والاسرار . وكالما تعمقت في استكشافها ازداد عجبني .

(ماركوفي)

انها لقساوة فظيعة أن تضرب المقعد بمكازتيه .

(فولر)

ما دام الرجل يتطلب الحكمة فهو حكيم . ولكن متى ظن انه حازها
فهو جاهل .